الإمام الكاظم υ ودوره في الإصلاح وتربية الأمة - نظرة تحليلية موجزة -

عماد موسى محمود علي
الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية (لندن)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، وعلى آله الغر الميامين.

إنَّ تتبع المنهج الإصلاحي والتربوي للنبي وأهل بيته في الأمة يستوجب على الباحث أنْ يصرفَ جانباً كبيراً من عمره ليحاولَ الإحاطةَ بتلك الجوانب المشرقة في حياة الأمة، وذلك لأنهم بُعثوا رحمةً للعالمين كما قال تعالى مخاطباً النبي : ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)).[1]، وبُعث معلماً وهادياً ومزكياً حيث قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)). [2] وغير تلك الآيات المباركة التي تبين الدور الإصلاحي والتربوي للأنبياء في القرآن الكريم، إضافة إلى ذلك فإننا لو تتبعنا السيرة المباركة لأوصياء النبي وهم الأئمة الاثنا عشر لرأينا هذا المنهج جلياً سواء من خلال سيرتهم العطرة مع المحبين لهم أو المعادين أو من خلال أحاديثهم وحِكَمِهم العظيمة التي تعكس دورهم في المجتمع حيث تشهد المواقف المتعددة لذلك، ففي ساحات الحرب كانت تصدر منهم المواقف التي تُذهل العقول في الحكمة والتربية والإصلاح، ولقد رأينا ذلك جلياً في مواقف علي بن أبي طالب والحسنين إضافة للمواقف الأخرى للأئمة .

ومن تلك الأدوار هو دور الإمام موسى بن جعفر υ في الإصلاح والتربية للمجتمع الإسلامي على الرغم من الظروف القاسية التي عانى منها υ من حيث السجن والمضايقات من قبل حكام الجور، ولكن كل ذلك لم يمنعه من أنْ يمارسَ دوره الذي عهده الله تعالى إليه بجَعله وصيَّ رسوله لحفظ الرسالة السماوية من الضياع، فقام بتأدية مسؤوليته على أحسن ما يكون من حيث الإصلاح في المجتمع وتربية المسلمين على المعاني السامية التي تحمل مفاهيم القرآن العظيم والسنة الشريفة حيث هما الدستور الأساس للمسلمين في حفظهم من الضياع، ووقوفه أمام الشبهات والشكوك التي كان يبثُّها أعداءُ المسلمين من الزنادقة وغيرهم، إضافة إلى ممارسة الحكام تحريف المفاهيم الحقيقية للإسلام من أجل الحكم والتسلط وإيجاد المسوغات لتصرفاتهم، فكان υ قد

تصدى لكل تلك المحاولات وردها من أجل الحفاظ على الشريعة المقدسة كما كان هو حال آبائه من قبل ..

نحاول في بحثنا –المتواضع– أنَّ نسلطَ الضوءَ على بعض تلك المواقف من سيرته υ والتي كان لها دورٌ في تربيةِ الأمةِ وإصلاحِ شؤونِها من خلالِ تلك المسيرةِ العظيمةِ التي دامت أيام إمامتِهِ وما سبقها من أيام إمامةِ أبيه جعفر بن محمد الصادق υ ، حيث إنَّ أعظمَ ما ورَّثه الأئمةِ هي تلك الأحاديث المباركة التي نحن بحاجةٍ إلى دراستِها والتفكُّرِ والتأمل فيها، لأنَّ فيها حياة الأمة، ليكون الخطُّ متصلاً بهم على الرغم من تلك السنون التي مضت على استشهاده υ لأنَّ الحياةَ الحقيقيةَ هي حياةُ العلمِ والفكرِ التي قد ورَّثوها للأمة لتكون دستوراً ومنهجاً تربوياً لهم في الوصول إلى طاعة الله تعالى ورضاه وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة..

تمهيد

إنَّ مناهج التربية الإسلامية تمتاز عن غيرها من المناهج التربوية الأخرى بمزايا عدة لأنَّ مبدءها يُستمد من قبل الخالق العظيم لعباده، والأعرف بما يُصلحهم ويفسدهم، وقد أكد على ذلك كُلُّ مَنْ أَلَّفَ وكتبَ في المجال التربوي الإسلامي، حيث لم يغادر هذه الحقيقة الناصعة، وترتكز هذه المنهجية على أسسٍ رصينةٍ ترسم للإنسان الصراط السوي لتحقيق سعادتها بالتمسك بالأخلاق الفاضلة التي حثَّ عليها المُشرِّع الإسلامي في مجال العلم والتعليم والتربية، وتتلخص هذه المنهجية التربوية الإسلامية في مصادر عدة أهمها:

– أولاً: القرآن الكريم، حيث هو المصدر الأول الذي يستمد الباحث التربوي الإسلامي نظرياته ومعانيه وأفكاره منه.

– ثانياً: السنة النبوية الشريفة، والتي تمثل المصدر الثاني للتشريع الإسلامي في كُلِّ مجالاته من حيث التأكيد على الأسس العظيمة لمناهج التربية الإسلامية.

– ثالثاً: نصوص الأئمة والتي هي امتداد لأحاديث النبي الأعظم التي تجلت فيها المعاني السامية لسيرة الأئمة على مدى أكثر من قرنين تستمد الأمة من عطائهم وتراثهم حتى غدا كنزاً عظيماً من كنوز العلم والمعرفة يرجع إليها الباحث التربوي الإسلامي في مجالي النظرية والتطبيق للمناهج التربوية. (٣)

فهذه المصادر الثلاثة هي المصدر الأساس للمنهج التربوي الإسلامي الذي ينبغي للمدارس الإسلامية وغيرها ممن تبتغي تحقيق السعادة للأجيال أنْ تستند إليها لتصل إلى أفضلِ سُبُل التربية والإصلاح في المجتمع.

وسيرة الأئمة هي سيرة معطاءة لهذه المناهج منذ أربعة عشر قرناً من الزمن كانت وما زالت تمد الأجيال بهذا العطاء الثري الذي يَعصم مَنْ تمسك به من الزيغ والضلال كما أنبأ بذلك رسول الله بقوله في حديث الثقلين: ((إنّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسكتُمْ به لن تضلّوا كتابَ الله وعترتي، فلا تَقْدموهُمْ فَتَهْلكوا، ولا تُقَصّروا عَنهم فَتَهْلكوا، ولا تُعَلّموهُمْ فإنَّهُمْ أعلمُ منكم)). (٤) ويمكن للباحث أنْ يرى ذلك جلياً في سيرة الإمام الكاظم υ ، حيث نحاول أنْ نبين دوره في ذلك من خلال بحثنا المتواضع إذ تم تقسيمه على مبحثين بعد مقدمة وتمهيد ثم خاتمة.

– المبحث الأول: يتناول لمحة موجزة عن دور الإمام الكاظم υ في إصلاح الأمة في جوانبها المتعددة العقائدية والفقهية والاجتماعية.

– المبحث الثاني: يتناول دور الإمام الكاظم υ في تربية الأمة من خلال التعليم ونشر العلم بين أصحابه وتهيأة نماذج من الأصحاب يُقتدى بهم إضافة إلى أحاديثه المباركة الموجهة لعامة المؤمنين والتي هي دروسٌ تربويةٌ لا يستغني الباحث التربوي عنها..

المبحث الأول: دور الإمام الكاظم υ في الإصلاح

إن دور الإصلاح لا ينفك في الغاية عن دور التربية فكُلٌّ منهما يدعو للآخر ويحقق أهدافه، ولكن الإصلاح يكون بعد تفشي الفساد عند الآخرين سواء أكان الفساد فردياً أم اجتماعياً، وسواء أكان ذلك الفساد في الجانب الفكري العقائدي أم الاجتماعي أم غير ذلك، ومن ثم كُلٌّ يؤدي إلى تحطيم كيان الأمة وأبنائها، ولابُدَّ للمعصوم من أنْ يكون له دورٌ في الحفاظ على الكيان العام للأمة، وقبل أنْ نتحدث عن أدوار الإمام الكاظم υ في الإصلاح الذي مارسه في المجتمع وحاول بثه ونشره بين المؤمنين نحاول أنْ نبين معنى (الإصلاح) وبعض أدوار أهل البيت في ذلك لتكون دعوته واضحة لدينا.

الإصلاح من الفعل (صلح) الذي يضاد (فسد)، وقد وردت كلمة (الإصلاح) في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة، قال الراغب الأصفهاني: ((الصلاح ضد الفساد وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال وقوبل تارة بالفساد وتارة بالسيئة في مواضع كثيرة قال تعالى: ((وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)) (٥) والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس يُقال منه اصطلحوا وتصالحوا...)). (٦)

إذاً فالمفهوم العام للإصلاح هو ما يقابل الإفساد والانحراف، والذي قد يكون مادياً أو معنوياً يتمثل في الفكر والعقيدة والخروج عن روح الشريعة، ولقد كان للأئمة دورٌ كبيرٌ في هذا الإصلاح وهو روح المسؤولية التي كانوا يقومون بها بعد النبي وإنَّ الهدف الأساس منه هو

الحفاظ على الشريعة الإسلامية المقدسة فقهاً وعقيدةً ومنهجاً بعدما أصابها الخلافات التي برزت بين المسلمين فأدت إلى اختلاف المسلمين إلى مذاهب وفرق شتى، فإنَّ هذا التحريف لمفاهيم العقيدة الإسلامية –حقيقة– يُعَدُّ صدعاً كبيراً للبناء الإسلامي القائم على الوحي السماوي والمُؤيد من قبله، ولقد كان أساس الاختلاف الأول الذي ظهر بين المسلمين بعد رحيل النبي هو مفهوم الخلافة والإمامة، حيث يصف لنا ذلك "الشهرستاني" في "الملل والنحل" بقوله: ((وأعظم خلاف في الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدةٍ دينيةٍ مثلما سُلَّ على الإمامة في كُلِّ زمانٍ)). (٧) فكانت أولى تلك الخطوات منهم هو تصحيح تلك الانحرافات منذ الساعة الأولى لأنها مسؤوليتهم الشرعية، لذا نرى –مثلاً– خروج الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ϒ في الدفاع عن الإسلام بكل ما أوتيت من قوةٍ وهذه أول خطوة إصلاحية لأهل البيت بعد وفاة النبي الأعظم فخطبت تلك الخطبة الخالدة التي أرادت من خلالها إيقاظ ضمير الأمة بالخوف من الله ومن عاقبة هذا التبديل والتحريف، فكان من جملة كلماتها: ((فلما اختار الله لنبيه دار أوليائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حَسَكَةُ النفاقِ، وسَمُلَ جلبابُ الدين ...)). (٨)

فهذه الخطبة وغيرها من المواقف الكثيرة التي وقفها الأئمة تؤكد على الدور الأساس في إصلاح الأمة وتهذيب أفكارها سواء على مستوي الجانب العقائدي أو الفقهي وغيره.

أما مواقف الإمام الكاظم υ في ذلك فهي أيضاً متعددة ولها أبعاد مختلفة نحاول بيان بعضها من خلال جوانب متعددة منها:

* الإصلاح في الجانب العقائدي

وأريد بالإصلاح العقائدي بيان المواقف الإصلاحية التي قام بها υ من أجل تصحيح مسار عقائد المسلمين من بعد ما أفسدها أصحاب الأهواء والجهل في المجتمع فانحرفوا عن الصراط المستقيم الذي بينه النبي وحث المسلمين بالتمسك به كما في حديث الثقلين المتواتر صدوره والذي تناقلته موسوعات الأحاديث النبوية الشريفة، ونحاول ذكرَ موقفين من تلك المواقف لا لأجل ذكر سيرته υ بل من أجل الوصول إلى الأهداف الكبيرة من تلك المواقف لتكون للمسلمين دروس يمكنهم الاستفادة منها في واقعهم وحياتهم:

<u>الأول: الإمام الكاظم υ مع الخليفة العباسي هارون الرشيد</u>

إنَّ للإمام الكاظم υ مع هارون الرشيد مواقف متعددة وقد تطرقت لذكرها كثير من المصادر التي كتبت عن سيرته υ ، ولكن نحاول ذكر أحدها وهو ما يتعلق بالإصلاح في الجانب العقائدي حيث الانحراف الذي أصاب بعض المسلمين واستفاد منه الحُكّام، بل شجعوا عليه وحاولوا نشره بين الناس للحفاظ على سلطانهم، ففي الرواية عن الإمام الكاظم υ :

– قال لي [هارون للإمام الكاظم υ بعد مناظرة]: جَوَّزتم للعامة والخاصة أنْ ينسبوكم إلى رسول الله ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي جدكم من قبل أُمِّكُم.

– فقلت: يا أمير المؤمنين لو أنَّ النبي نُشِر فخطبَ إليك كريمتك، هل كنتَ تجيبه؟

– قال: سبحان الله! ولم لا أجبه، بل أفتخرُ على العرب والعجم وقريش بذلك؟

– فقلت له: لكنه لا يخطب إليَّ ولا أزوجه.

– فقال: ولم؟

– فقلت: لأنه ولدني ولم يلدك.

– فقال: أحسنت يا موسى!

– ثم قال: كيف قُلتم إنا ذرية النبي والنبيُّ لم يعقب، وإنما العقب الذكر لا الأنثى، وأنتم ولد الابنة ولا يكون ولدها عقباً له.

– فقلت: أسألك بحق القرابة والقبر ومَنْ فيه، إلا أعفيتني عن هذه المسألة.

– فقال: لا أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي! وأنت يا موسى يعسوبهم، وإمام زمانهم، كذا أُنهي إليَّ، ولستُ أعفيكَ في كُلِّ ما أسألك عنه، حتى تأتيني فيه بحجةٍ من كتابِ الله، وأنتم تَدَّعون معشرَ ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو إلا تأويله عندكم، واحتججتم بقوله Y : ((مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ)) [الأنعام: ٣٨] واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

– فقلت: تأذن لي في الجواب؟

– قال: هات.

– فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ((وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ)) [الأنعام: ٨٤–٨٥] ، مَنْ أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟

– فقال: ليس لعيسى أب.

– فقلت: إنما ألحقناه بذراري الأنبياء من طريق مريم ϒ وكذلك أُلْحِقْنا بذراري النبي من قبل أُمِّنا فاطمة، أُزيدُكَ يا أمير المؤمنين؟

– قال: هات.

- قلت: قول الله Y : ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)) [آل عمران: ٦١] ولم يَدَّعِ أحدٌ أنه أدخله النبي تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلا علي بن أبي طالب υ وفاطمة، والحسن والحسين أبنائنا "الحسن والحسين" ونسائنا "فاطمة" وأنفسنا "علي بن أبي طالب" υ ...

- فقال: أحسنت يا موسى! ارفع إلينا حوائجك.

- فقلت له: إنَّ أول حاجة لي أنْ تأذن لابْنِ عمك أنْ يرجع إلى حرم جده وإلى عياله.

- فقال: ننظر إن شاء الله. (٩)

فهذا الموقف من أعظم مواقفه في الإصلاح العقائدي قد وجَّهَهُ للحاكم، ومن بعده لوعاظ السلاطين وللأمة، بل لجميع المسلمين.

الثاني: الإمام الكاظم υ مع صاحبه صفوان الجمال

لقد حاول الإمام υ أنْ يتحدث مع جميع طبقات المجتمع ليهديهم إلى الصراط المستقيم عن طريق امتثالهم لطاعة الله تعالى وابتعادهم عن معصيته وغضبه، ونلاحظ ذلك جيداً من خلال كلماته العظيمة التي كان يوجهها إلى أصحابه وغيرهم، فلقد حَرَّم على أصحابه التعاون مع الظالمين بجميع صوره لما لهؤلاء الظالمين من الدور الكبير في إفشاء المنكر والمعاصي بين المسلمين، وتقويتهم وهذا ما لا يمكن القيام به من قبل المؤمنين لأنَّ ذلك من المحرمات التي نهى عنها الله تعالى حيث قال تعالى: ((وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ)). (١٠) إذ أنَّ بعض المؤمنين قد لا يعرف تكليفه الشرعي فيكون من أعوان الظالمين ومقوية سلطانه من حيث لا يعلم بذلك، إلا في موارد قد حددتها الشريعة المقدسة (١١)، ومن هذه الكلمات التي ترجمت الدور الإصلاحي للإمام υ في المجتمع حديثه المشهور مع أحد أصحابه وهو "صفوان الجمال"، (١٢) حيث يروي ذلك.

- فيقول: دخلت عليه.

- فقال لي: يا صفوان كُلُّ شيء منك حسن جميل، خلا شيئاً واحداً.

- قلت: جعلت فداك! أيّ شيء؟

- قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل -يعني هارون-.

- قلت: واللهِ ما أكريتُهُ أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو، ولكن أكريته لهذا الطريق -يعني طريق مكة- ولا أتولاّه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

- قال: يا صفوان أيقعُ كراؤكَ عليهم؟

– قلت: نعم جعلتُ فداك.

– قال: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟

– قلت: نعم.

– قال: فمن أحبَّ بقاءهم فهو منهم، ومَنْ كان منهم فهو كان ورد النار.

– قال صفوان: فذهبتُ وبعتُ جمالي عن آخرها. فبلغ ذلك إلى هارون فدعاني ، وقال: يا صفوان بلغني أنك بعتَ جمالك ؟

– قلت: نعم.

– فقال: لِمَ ؟

– قلت: أنا شيخ كبير، وإنَّ الغلمان لا يفونَ بالأعمال.

فقال: هيهات، إني لأعلمُ مَنْ أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر.

– قلت : ما لي ولموسى بن جعفر.

– فقال : دَعْ هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك. (١٣)

فهذه كانت رسالته υ في معرفة كيفية موارد العمل من دون معصية الله تعالى، وهي من أعظم الرسائل التي قدمها الإمام إلى المجتمع في ذلك الحين والى جميع المسلمين في كل العصور ولقد استجاب الكثير من المؤمنين لهذه الدعوات العظيمة ومن هؤلاء "صفوان الجمال" على الرغم من كل تلك الظروف الصعبة والشديدة التي كان يعانيها الإمام موسى بن جعفر υ من حكام عصره إلا أنَّ هذا لم يُثنِ من دوره العظيم في قيادة المجتمع الإسلامي نحو الخير والصلاح والصواب وتسديد الموالين الصادقين لشؤونهم الخاصة والعامة ..

وهذا هو المعتقد الإسلامي الذي حدده القرآن الكريم وبيَّنه العلماء الأعلام، يذكر العلامة الشيخ "محمد رضا المظفر" تحت عنوان "عقيدتنا في التعاون مع الظالمين": ((ولا شك أنَّ أعظم ما مُني به الإسلام والمسلمون هو التساهل مع أهل الجور، والتغاضي عن مساوئهم، والتعامل معهم، فضلاً عن ممالأتهم ومناصرتهم وإعانتهم على ظلمهم، وما جرَّ الويلات على الجامعات الإسلامية إلا ذلك الانحراف عن جدد الصواب والحق ... لقد جاهد الأئمة في إبعاد مَنْ يتصل بهم عن التعاون مع الظالمين، وشددوا على أوليائهم في مسايرة أهل الظلم والجور وممالأتهم)). (١٤)

* الإصلاح في الجانب الفقهي

وأما في الجانب الفقهي فهو كثير كذلك حيث ظهور الآراء الفقهية الشخصية التي كانت – حقيقة– اجتهادات وتأويلات ينفرد بها بعض، ونذكر في ذلك موردين ذكرهما أصحاب السيرة في سيرة الإمام الكاظم υ لنرى دوره في هذا الجانب.

أولاً: سأل محمد بن الحسن الشيباني [١٥] أبا الحسن موسى υ – بمحضر من الرشيد وهم بمكة – فقال له: أيجوز للمحرم أنْ يظللَ عليه محمله؟

– فقال له موسى υ : لا يجوز له ذلك مع الاختيار.

– فقال له محمد بن الحسن: أفيجوز أنْ يمشي تحت الظلال مختاراً.

– فقال له: نعم.

– فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك.

– فقال له أبو الحسن موسى υ : أتعجب من سنة النبي وتستهزئ بها؟

إنَّ رسول الله كشف ظلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم. إنَّ أحكام الله تعالى يا محمد لا تقاس، فمَنْ قاسَ بعضها على بعض فقد ضَلَّ عن السبيل.

فسكت محمد بن الحسن لا يرجع جواباً. [١٦]

ثانياً: وقد جرى لأبي يوسف [١٧] مع أبي الحسن موسى صلوات الله عليه بمحضر المهدي ما يقرب من ذلك.

وهو: إنَّ موسى υ سأل أبا يوسف عن مسألة ليس فيها عنده شيء.

– فقال لأبي الحسن موسى υ : إني أريد أنْ أسألك عن شيء.

– قال: هات.

– فقال: ما تقول في التظليل للمحرم؟

– قال: لا يصلح.

– قال: فيضرب الخباء في الأرض فيدخل فيه؟

– قال: نعم.

– قال: فما فرق بين هذا وذلك.

– قال أبو الحسن موسى υ : ما تقول في (الطامث) تقضي الصلاة؟

– قال: لا.

– قال: تقضي الصوم؟

– قال: نعم.

– قال: ولم؟

- قال: إنَّ هذا كذا جاء.
- قال أبو الحسن υ : وكذلك هذا.
- قال: المهدي لأبي يوسف: ما أراك صنعت شيئا!
- قال: يا أمير المؤمنين رماني بحجة. (١٨)

فهذان مثالان نكتفي بذكرهما عن دور الإمام الكاظم υ في الإصلاح الفقهي للمسلمين في المجتمع ولمَنْ يدَّعي الفقه.

وإنَّ الإصلاح في هذا الجانب وغيره الذي مارسه الإمام كان بمثابة ردٍّ فعلٍ على تلك التأويلات التي قامت أمام النصوص الشرعية الواضحة الثابتة التي بينها رسول الله للأمة ولكن الأمة انحرفت عن المسار والصراط الذي رسم لها، ويمكن مراجعة ذلك في موارده. (١٩)

وأما الإصلاح في الجانب الاجتماعي فالوقائع كثيرة جداً يمكن لنا أنْ نلمسها في كُلِّ أفعاله وأقواله التي كان يمارسها في المجتمع لصلاح الناس وهدايتهم وما جرى على يديه من الحوادث والوقائع حتى وهو في السجن، ويمكننا مراجعة كتب السيرة والحديث وما ورد عنه υ . (٢٠)

المبحث الثاني: دور الإمام الكاظم υ في تربية الأمة

إنَّ المنهج التربوي عند أهل البيت اختصَّ بخصائص امتاز بها عن غيره من المناهج، وهي تعتبر الحجر الأساس في بناء الشخصية الإسلامية لمن يلتزم بها، ولست هنا بصدد المقارنة أو الموازنة بين المناهج التربوية ولكن بصدد بيان أهم مزايا هذه التربية التي أُسست في بيوت مَنْ قَرَنَ النبي طاعتهم بطاعة القرآن الكريم، ومن أهم مزايا هذا المنهج التربوي كما تم بيانه في كتاب "المنهج التربوي عند أهل البيت ":

١- **ربانية المنهج التربوي:** وهذا لا خلاف فيه مطلقاً كونهم أئمة المسلمين الذين فرض الله طاعتهم وولايتهم وعصمهم من الرجس وطهرهم تطهيرا، فهم الأمان من الغرق في بحر الضلالة والغي كما ورد عن النبي قوله: ((ألا إنَّ مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تخلَّف عنها غرق)) ..

٢- **شمولية المنهج التربوي:** فهو منهج شامل يراعي الإنسان من جميع مقوماته وجوانبه فأنه يدعو إلى إصلاح الإنسان وتربيته إلى جانب صلاح المجتمع والدولة والبيئة وكل ما له دور في التأثير على الإنسان ..

٣- **واقعية المنهج التربوي:** حيث لم تكن منهجيته مجرد نظريات لا يمكن تطبيقها في الواقع، بل ينظر للإنسان أنه كائن حيٌّ ذو قدرات محدودة تتفاوت بينها من حيث الصبر والحرج والمشقة والرضا وتحقيق الرغبات، والدور الوراثي في ذلك إضافة للبيئة التي يعيش فيها..

٤- **التوازن والاعتدال في المنهج التربوي:** حيث يضع لكل شيء حدوده، فيراعي ما يتعلق بالجسد وما يتعلق بالروح وكيفية الموازنة بينهما، وكذا الموازنة بين أمور الدنيا والآخرة.(٢١)

فهذه أهم مميزات منهج أهل البيت في التربية، وسوف نتحدث في هذا الباب عن دور الإمام الكاظم υ في تربية الأمة من خلال محورين، يتناول المحور الأول بعض الأحاديث التربوية المهمة التي كان لها دور في ذلك، ويتناول المحور الثاني أثر هذه التربية في إيجاد الرواة العلماء من أتباع أهل البيت ودورهم في نشر العلم.

المحور الأول:

لقد كان للإمام الكاظم υ دورٌ كبيرٌ في المجتمع الإسلامي سواء في عصر أبيه الإمام الصادق υ أو في عصره، وقد تجلى كل ذلك من خلال أحاديثه الشريفة وكلماته المباركة ووصاياه لشيعته ومواليه، بل لكل المسلمين من خلال حثهم على الإيمان والتقوى والورع.

ومن أهم تلك الأحاديث التربوية التي نتناولها بالبحث والبيان، قوله υ : **((اجْتَهِدُوا فِي أَنْ يَكُونَ زَمانُكُمْ أَرْبَعَ ساعاتٍ؛ ساعَة لِمُناجاةِ اللهِ، وَساعَة لأَمْرِ المَعاشِ، وَساعَة لِمُعاشَرَةِ الإِخْوانِ وَالثُّقاتِ الَّذينَ يُعَرِّفُونَكُمْ عُيُوبَكُمْ وَيُخْلِصُونَ لَكُمْ فِي الباطِنِ، وساعَة تُخْلونَ فِيها لِلَذّاتِكُمْ فَي غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَبِهذِهِ السّاعَةِ تَقْدِرُونَ عَلى الثَّلاثِ سَاعات)).** (٢٢)

فلو تتبعنا هذا الحديث المبارك والذي يعد من غرر حكم الإمام موسى بن جعفر υ لتبيَّنَ لنا عظمة هذه الكلمات في تربية أبناء المجتمع الإسلامي، فنراه قد قسم أوقات الإنسان في يومه وليلته إلى أربعة أوقات لئلا تمر عليه الساعات وهو مشتغل باللذات والمحارم دون الالتفات إلى حقيقة هذه النعمة –العمر–، فلقد أرشدنا υ إلى هذا التقسيم الرباعي الذي يجعل للوقت غاية وللإنسان أهمية، وهو يعلم أنَّ هذا لا يمكن تحقيقه بسهولة ما لم يستعد الإنسان لجهاد نفسه التي بين جنبيه والتي تأمره باللذات والشهوات فقط، ولذا عبَّر υ بقوله (اجتهدوا) والاجتهاد في اللغة مأخوذٌ من الجُهْدِ وهو بذل الوسع للقيام بعملٍ ما، وهذا يدلل على مدى الاستعداد الذي يجب على الإنسان أنْ يقوم به من أجل أنْ يستطيع تقسيم وقته وزمانه في رحاب هذه الساعات الأربع، حيث يجعل لكلٍّ جزءٍ منها عملاً مُعَيَّناً يشرع فيه إلى تلك الآثار، وهذا يتطلب جُهْداً وجهاداً عظيمَين للنفس الإنسانية من أجل ترويضها وتدريبها على ذلك، وفي هذا أعظم درسٍ من دروس التربية التي يبتغيها الإمام υ من خلال هذه الأحاديث التي يُحدِّث بها تلامذته وشيعته بأنْ لا يكون الإنسانُ أسيراً لنفسه الأمارة بالسوء والمتكالبة على حُبِّ الشهوات واللذات، وجهاد النفس من أعظم الأعمال التي يجب على المؤمنين القيام بها حتى ورد التعبير عنه في الروايات الشريفة بـ(الجهاد

الأكبر) لأنَّ الإنسان إنِ استطاع تربية هذه النفس التربية السليمة استطاع بالتالي الوصول بها إلى المنازل والدرجات الرفيعة التي أعدها الله تعالى لأوليائه، حيث إنَّ الحديث يؤكد على الجوانب المعنوية والمادية للإنسان، وأما الأعمال التي قُسمت في هذه الساعات الأربع فيمكن إجمالها بما يلي:

١- العبادة بكلِّ أشكالها وصورها.

٢- العمل للوصول إلى الكفاف في المعيشة.

٣- العلاقة العامة في المجتمع.

٤- التمتع بالنعم الإلهية التي أنعم الله تعالى بها على عباده.

فهذه أهم أعمال الساعات الأربع التي أشار إليها الإمام υ في هذا الحديث التربوي الكبير والذي يحتاج إلى دراسة معمقة للوصول إلى الغايات الكبيرة التي يبتغيها الإنسان لو التزم بذلك، ونحاول أنْ نسلط الضوء إجمالاً على موارد هذه الساعات وأهميتها كما أشارت إليها الشريعة المقدسة إضافة لعلم النفس والاجتماع والتربية لنرى أبعاد وأسرار هذه التربية الخاصة التي أراد الأئمة υ تربية مواليهم ومحبيهم بل الإنسانية كلها.

فالساعة الأولى هي الساعة التي يتضرع فيها العبد لربه بأداء العبادات والطاعات المفترضة عليه من قبل الله تعالى، وما لهذه الساعة من الآثار العظيمة في الغِناء الروحي لتسمو النفس من أسرِ الشهوات واللذات بالتوجه إلى طاعة الله تعالى من خلال التمسك بأداء الصلاة الواجبة مثلاً وكذا المستحبة أيضاً والمحافظة على أدائها والفوز بآثارها وفضائلها، وكذلك من العبادات الأخرى كالصوم والدعاء وقراءة القرآن وغير ذلك مما له من الآثار العظيمة التي لا تخفى على أحد، وتتجلى الصورة المعنوية في هذه الساعة بالأعمال التي تهذب فيها الروح وتتقوى بالتوجه إلى الله باستمداد العطاء منه، فلا ينبغي علينا أنْ نضيِّع هذه الساعة فتكون الحياة مادية لا روح فيها كما هو الحال في المجتمعات الغربية البعيدة عن تعاليم السماء والتي لا هَمَّ لها سوى تحقيق المنافع المادية الدنيوية، بل يجب على الإنسان أنْ يتوجه إلى الخالق ويستمد منه القوة والعطاء وتأدية الواجبات التي فُرضت عليه، فالإسلام لا يريد من الإنسان الرهبانية فيه، بل أنْ يُعطي لكل أمرٍ حقه، فحق الله أولاً يجب الالتزام فيه وتأديته من قبل العباد لأنه هو الخالق المنعم، والسيد الذي يمتثل العبد بين يديه، كما ورد في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين υ بقوله: ((حق الله الأكبر عليك أنْ تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلتَ ذلك بإخلاصٍ جعل لك على نفسه أنْ يكفيكَ أمرَ الدنيا والآخرة، وحق نفسك عليك أنْ تستعملها بطاعة الله Y)). [٢٣] وقد ابتدأ الإمام υ بهذه الساعة وخصها لله تعالى لأنَّ هذا الحق هو أهم الحقوق والواجبات التي يجب على العبد أنْ

يؤديه قبل غيره ولذا عبَّر υ بلفظ (المناجاة) وهي أدق الألفاظ التي تعبر عن القرب من الله تعالى، والروايات التي وردت في عظمة العبادة والتوجه إلى الله تعالى وآثارها فهي كثيرة منها قول الإمام الرضا υ في بيان علة العبادة: ((لئلا يكونوا ناسينَ لذكره، ولا تاركين لأدبه، ولا لاهينَ عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تُركوا بغير تعبُّدٍ لطالَ عليهم الأمد فقست قلوبهم)). [٢٤] إضافة إلى ذلك فإنَّ الإنسان لو حافظ على هذه الساعة وأدى ما افترضه الله تعالى عليه لوجدنا بعد ذلك المجتمع الإسلامي مجتمعاً متكاملاً متماسكاً بعضه مع بعضٍ في الصفاء والطهارة للنفس الأمارة بالسوء والاطمئنان بذكر الله تعالى حيث لا اطمئنان وراحة للإنسان دون التوجه والتقرب إليه، قال تعالى: ((أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)). [٢٥] إلى غير ذلك من الصور العظيمة المشرقة بين أبناء المجتمع في الخشوع والخضوع لتعاليم الله تعالى ..

وأما الساعة الثانية وهي التي حث فيها الإمام υ على أمر المعاش والعمل، وحث الإنسان المؤمن على العمل والاجتهاد في ذلك حتى يقترن إيمانه بعمله فيكون القدوة والأسوة الحسنة بين أبناء المجتمع، حيث إنَّ كُلَّ إنسانٍ لا يستطيع أنْ يستغني عن هذا الأمر مهما كانت منزلته في المجتمع، فقد بنيت لنا الآثار المباركة أنَّ الأنبياء والأئمة كلهم كانوا يعملون ويعتمدون في أمرِ معاشهم على عملهم دون الاتِّكال على الآخرين، ولذا ورد في كثير من الروايات المباركة الحث على العمل والجهد والاجتهاد فيه وذم المتكاسلين والمُتَّكلين على غيرهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الساعة وما يجب على العباد فيها بالرغم مما تكفَّله الله تعالى لأرزاق العباد، ولكن يجب عليهم أيضاً السعي لذلك قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)). [٢٦]، فالعمل أمرٌ مهمٌّ ويجب على الأمة المؤمنة أنْ تكون عاملةً لا متكاسلة لتحصل على العفاف الذي يُغنيها عن الاعتماد على الآخرين والروايات التي وردت في الحث على ذلك كثيرة، وسيرة النبي وأهل بيته تؤكد على ذلك، فلقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب υ : ((إذا فرغ من الجهاد يتفرغ لتعليم الناس والقضاء بينهم، فإذا فرغ من ذلك اشتغل في حايط له يعمل فيه بيده)). [٢٧]، وكان للإمام الصادق υ أيضاً حايط يعمل فيه فيقول له أصحابه: ((جعلنا الله فداك دعنا نعمل لك أو تعمله الغلمان، فيقول لا دعوني فإني أشتهي أنْ يراني الله Y أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي)). [٢٨] ، ومن الروايات الواردة عن النبي التي تؤكد على العمل وطلب الحلال قوله: ((الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله)). [٢٩] وقوله : ((إنَّ الله يحب أنْ يرى عبده تعباً في طلب الحلال)).[٣٠]، فالإسلام يحث على العمل ويجب علينا أنْ نربي المسلمين على هذه التعاليم التي تدعو إلى عزة النفس وكرامتها والحفاظ عليها من الذل

والهوان، وهذه من أهم أدوار التربية التي يجب التأكيد عليها، لذا نرى أنَّ الإمام υ قد جعل هذه الساعة بعد الساعة الأولى المتعلقة بعبادة الله تعالى، بل إنَّ روايات عدة وردت عنهم تذم المتَّكلين على غيرهم فقد روي عن النبي : ((ملعونٌ ملعونٌ مَنْ ضيَّع مَنْ يعول)).[٣١]، وفي رواية عن الإمام الصادق υ : ((كفى بالمرءِ إثماً أنْ يضيِّعَ مَنْ يعول)).[٣٢]، فالأمر الذي يجب أنْ يُؤكد عليه هو إنَّ الإسلامَ دينُ العبادةِ والعملِ ولا يُفَرَّق بينهما فلكل منهما وقت معين محدود، وفي ذلك درس تربوي يجب علينا أنْ نلتفت إليه، ونعتني به، ونحافظ عليه، لنرتقي بالمسلمين نحو العلو والشرف والكرامة ..

وأما الساعة الثالثة فهي من الساعات المهمة جداً والتي يجب أنْ تُهيأ الأمة لها، لما فيها من الآثار الاجتماعية الكبيرة وما فيها من أثرٍ في صلاح الإنسان والمجتمع وتماسكه، وللأئمة في ذلك أحاديث كثيرة تحث على الإخوة والمحبة والتعاون بين المؤمنين انطلاقاً من تعاليم القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)). [٣٣] وقوله تعالى: ((وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)). [٣٤] وغيرها من الآيات التي تحث على المعنى نفسه، ففي هذه الساعة أراد الإمام υ أنْ يربي الأمة على العمل بمفاهيم القرآن القائمة على المحبة والصدق والإيثار وهذا لا يمكن تحقيقها لو لا العلاقات القائمة على الإخوة وما ينطوي تحت هذا اللفظ من معانٍ عظيمة.

فالإمام الكاظم υ في هذا الحديث يحاول أنْ يبين أسس هذه العلاقة بين المؤمنين وغيرهم القائمة على أساسين الإخوة والثقة وفي ذلك حَثٌّ على المعاشرة والتزاور والتودد وصلة الأرحام وغير ذلك وما لهذه الطاعات من الأثر البالغ على المجتمع في إيجاد هذه الروابط ونشرها بين الناس وتقويتها، حيث إنَّ الساعة الأولى كانت مقتصرة على التكامل المعنوي من العلاقة بين العبد وربه وأثر هذه العبادة على تهذيب النفس وترويضها على الطاعة لله تعالى، والساعة الثانية كانت مقتصرة على التكامل المادي من حيث الحصول على المال الحلال وما في ذلك من تحقيق حاجات الإنسان ومَنْ يتعلق به، وأما في الساعة الثالثة فإنَّ التكامل فيها سيكون وفق قاعدة أكبر من ذلك وهي المجتمع وما يحتاجه من التكافل بين جميع أبنائه لتحقيق السعادة فيه، وفي هذا الحديث يشير الإمام υ إلى الدقة في اختيار الأصدقاء والمعاشرة معهم وليس مطلق الإنسان يمكن أنْ يُتخذ صاحباً وصديقاً يُعاشره لأنه قد يضره أحياناً من حيث لا يعلم سواء في أمرٍ دنيويٍّ أو ما يتعلق بأمور الآخرة، ولذا جعل حداً دقيقاً لهذه المعاشرة وهو أنْ مَنْ تعاشره (الأخ الثقة) أي ليس مطلق الأخ، بل الثقة منهم لأنَّ في هذا الصنف من الإخوان صفات عظيمة لا تتحقق في غيرهم،

والإنسان بحاجة إليها دائماً لتذكره بأفعاله وأقواله وكل تصرفاته لئلا يزيغ عن الصواب، ومن أهم هذه الصفات التي ينبغي أنْ تتوفر في مَنْ نريد معاشرته من الإخوان الثقات هي (الصدق والإخلاص)، أي الصدق في المعاشرة والإخلاص فيها لأنَّ لهاتين الصفتين آثاراً كبيرة على هذه المعاشرة، وقد أكَّدت الروايات الشريفة على هذه المعاشرة أيضاً، ففي حديث عن أمير المؤمنين υ يقول فيه وهو يصنِّف الإخوان إلى صنفين: ((الإخوان صنفان؛ إخوان الثقة وإخوان المكاشرة، فأما إخوان الثقة فهم كالكَفِّ والجناحِ والأهلِ والمالِ، وأما إخوان المكاشرة فإنك تصيبُ منهم لَذَّتَك فلا تقطعنَّ ذلك منهم، ولا تطلب ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان)). [٣٥]، وفي هذا درسٌ تربويٌّ كبيرٌ حيث لا يمكن للإنسان أنْ يعيش لوحده في المجتمع دون الاتصال بالآخرين بعد أنْ تتوثق العلاقة بالخالق تعالى، حيث لا يمكن أنْ تنفك هذه عن تلك لأنَّ المشرِّعَ هو الذي يرسم لنا أصول هذه العلاقات، وقد وردت في دراسات علم النفس الإسلامي بحوثاً تؤكد على أصل هذه العلاقات ونظر المشرِّع الإسلامي لها مقابل نظر علماء النفس الآخرين وكيفية تسخير هذه العلاقات مع الآخرين من خلال التوافق الاجتماعي في المبدأ الإلهي، أي ضمن الحدود التي توصل إلى طاعة الله تعالى، حيث إنَّ هذه الساعة الثالثة التي أشار إليها الإمام υ هي من الساعات التي تنظم سلوك الإنسان في الحياة الدنيا للوصول إلى الهدف الأساس وهو رضا الله تعالى (ورضوان من الله أكبر)، يقول الدكتور "البستاني" في التوافق الاجتماعي: ((إنَّ التوافق الاجتماعي يعني التكيُّف مع البيئة التي يحياها الفرد من خلال الأطراف الاجتماعية التي تنظم علاقاته بالبيئة، وهي –عادة– علاقات عامة وعلاقات خاصة، أما العلاقات العامة فيكفي أنْ نشير إلى إلحاح التشريع عليها من خلال مبدأ (المؤمنون إخوة) فيما لا حاجة للتعقيب عليها ما دامت تمثل مبدأ ينفذ إل الصميم من الحياة الاجتماعية التي يعني المشرع الإسلامي بها. وأما العلاقات الخاصة فتمثل في ما يسميه بعض علماء الاجتماع بـ (الجماعات الأولية) حيث تنتظمها علاقات مباشرة مثل (الأسرة، الصداقة، الجوار ..الخ) ونحن لو اقتصرنا على ظاهرة (الصداقة) مثلاً لوجدنا إنَّ هذه الظاهرة تمثل أحد أشكال الانتماء الاجتماعي في لغة البحث الأرضي، بيد أنَّ المشرِّع الإسلامي وهو يشدد عليها بإلحاح إنما يحددها في خطوط لا يجعل منها مجرد انتماء أرضي، بل يفاعل بينها وبين الانتماء إلى الله)). [٣٦] إذاً فالتشريع الإسلامي جاء موافقاً للفطرة الإنسانية من حب الاجتماع والحاجة إلى الآخرين، ولكنه أراد أنْ يهذِّب هذه الحاجات ضمن قواعد شرعية مهمة فكان الحُكم في بعضها يتردد بين أحد الأحكام الشرعية الخمسة من حيث الوجوب والاستحباب والحرمة والكراهة والإباحة.

مما تقدم يظهر لنا جلياً الهدف من اهتمام الإمام υ بالمعاشرة لما يترتب عليها من الآثار العظيمة التي تقوِّي الروابط الاجتماعية بين الإخوة لأنها قائمة على الصدق والإخلاص وما لهتين الصفتين من الآثار على العلاقة.

فالصدق في العلاقة يدعو إلى الإخلاص فيها، فيجب علينا إذن أنْ نحسن الاختيار في المعاشرة ويتكيَّف الإنسان لذلك فيقبل من صاحبه ما لو قال له إنَّ هذا أمر فيه من الآثار السلبية كذا وكذا لأنه من الإخوان الثقات، لأنه يكون مأموناً في كل أشكال العلاقة سواء المادية منها أو المعنوية، ولذا وردت أحاديث كثيرة في اختيار الإخوان وتنظيم العلاقة معهم وبيان أحسنها، ومما ورد من الأحاديث الشريفة في ذلك قول النبي : ((خيرُ إخوانك مَنْ أعانك على طاعة الله، وصدَّك عن معاصيه، وأمرك برضاه)). [٣٧]، وقال : ((خيرُ إخوانكم مَنْ أهدى إليكم عيوبكم)). [٣٨]، وعن أمير المؤمنين υ قوله: ((خيرُ إخوانك من دعاك إلى صدق المقال بصدق المقال، وندبك إلى أفضل الأعمال بحسن أعماله)). [٣٩]، وقال υ : ((خيرُ إخوانك مَنْ دلَّكَ على هدى، وأكسبكَ تقى، وصدَّكَ عن اتباعِ هوى)). [٤٠]، فيجب علينا التمسك بمثل هؤلاء الإخوان الذي يُصْدِقون لنا في الظاهر والباطن بل يكونوا أحبَّ الناس إلينا لأنهم من نِعم الله تعالى إلينا.

فهذه عدة من الأحاديث التي تؤكد على المعنى الذي حثَّ عليه الإمام الكاظم υ في أمر هذه الساعة الثالثة المخصصة لمعاشرة الإخوان والتي من أهم آثارها أنَّ هؤلاء الإخوان (يُعَرِّفونَكُمْ عُيوبَكُمْ وَيُخْلِصونَ لَكُمْ في الباطِنِ) وما أحوجنا اليوم إلى هؤلاء.

وأما الساعة الرابعة فإنها قد خصصت للتفرغ للذات المتعددة التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان ولكن عليه أنْ يستخدمها في طاعة الله دون معصيته ليروِّحَ بها عن نفسه ويستعين بها على تلك الساعات الثلاث وما تحتاجه من الاستعداد، وهذا يؤكد على أنَّ المنهج التربوي الإسلامي يراعي التوازن والاعتدال في مناهجه، والأحاديث التي وردت في الزواج والعشرة والسفر وغيرها كفيلة ببيان أثر هذه الساعة على النفس.

أعتقد في نظري القاصر أنَّ هذا الحديث يحتاج إلى دراسة معمقةٍ كبيرةٍ لبيان عظمة هذا المنهج التربوي الذي أراد الإمام υ بيانه للناس فلا تفي هذه السطور لبيانه، بل إنَّ هذا قد يبخس حق الآثار العظيمة له، نتمنى من الأساتذة والمربين أنْ يسلطوا الضوء على مثل هذه الأحاديث في دراساتهم التربوية والاجتماعية لأنَّ فيها من الآثار الكبيرة على النفس والمجتمع ما لا يعلمه إلا الله تعالى، إضافة لما فيها من الآثار في تغيير الواقع الروحي والمادي المريرين الذي يعاني منه المسلمون في كل البقاع بل تعاني منه الإنسانية كلها، لا تعلم إلى أين تلتجأ لتحقيق سعادتها.

المحور الثاني:

ونتحدث في هذا المحور على مستويين؛ الأول: بيان أثر تربية الإمام الكاظم υ في حث أصحابه على العلم والتعلم وبيان العلوم التي يجب عليهم أنْ يتعلموها لنشرها وبيانه في المجتمع، والثاني: تسليط الضوء على نبذة ممن مَنْ تخرج من الرواة العلماء من أتباعه υ ودورهم في نشر العلم، وما لهذا من آثارٍ في تربية الأمة.

*** المستوى الأول**

من العلوم التي كان يؤكد عليها الإمام υ في تعلمها وتعليمها ونشرها هو علم الفقه والعقيدة لكي يحافظ الإنسان على عقيدته وأعماله تجاه الله تعالى، وهناك أحاديث كثيرة في ذلك، نذكر منها:

* ورد أنه دخل مسجد النبي فرأى قوماً قد طافوا برجل وهم يعظمونه ويبالغون في تكريمه فقال υ لبعض أصحابه: من هذا ؟

فقال: علامة !

فقالυ : وما العلامة ؟

قال: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها.

فقال υ : ذاك علمٌ لا يضرُّ مَنْ جهله، ولا ينفع من علمه.

ثم قال: إنما العلم ثلاثة: آيةٌ محكمةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ، أو سُنة قائمةٌ، وما خلاهن فهو فضل. (٤١)

فهنا لما رأى الإمام اجتماع الناس حول هذا الرجل علم أن لابد من إصلاح هذه الرؤية لديهم حول العلم وحقيقة فبين لهم حقيقة بقوله (إنما العلم فريضة....) ليؤكد على إن العلم حقيقة ما كان يوصل إلى النجاة سواء في الدنيا أو الآخرة وليس ما هو مرتكز في أذهان بعض الناس من هذه العلوم التي تكون ذو فائدة محددة، بل عليهم البحث عن نجاتهم، وإنَّ النجاة لا تكون بلا الرجوع إلى أحكام الشريعة المقدسة والتفقه في الدين من أجل سد أولاً الجهل والشك الذي قد يسري إلى أبناء المجتمع، فهذه بمثابة دعوة تربوية إلى اهتمام الإنسان بالعلم أولاً وبنوع العلم الذي ينفعه لتكون الثمرة أكثر نضوجا في ذلك ثانياً، وهذا ما أراد بيانهم υ من هذا الحديث، فلقد بين υ لطلاب العلم الطريق السوي لمناهل العلوم دون أنْ تذهب بهم المذاهب إلى طرق شتى، فأراد أنْ يبين للناس إنَّ العلم إنما يطلق على هذه الأمور الثلاثة التي تستحق أنْ يصرف الإنسان وقته عليها، وهذا درسٌ تربويٌّ للاستفادة من الطاقة الإنسانية والمحافظة على الفكر وسلامته مما يضره أو يلهيه عن الصراط السوي، وهو أيضاً درسٌ لنا وللأجيال في حسن اختيارها العلم الذي ينفعها.

* قال υ : **((وجدتُ علمَ الناسِ في أربع: أولها: أنْ تعرفَ ربك، الثانية: أنْ تعرفَ ما صنع بك، الثالثة: أنْ تعرفَ ما أراد منك، الرابعة: أنْ تعرفَ ما يخرجك عن دينك))**. (٤٢)

فإنَّ جميع العلوم والمعارف الإلهية قد حصرها الإمام υ ضمن هذه الكلمات الأربع بأعذبِ أسلوبٍ وأعظمِ بيانٍ، ففي الأول يجب أنْ تنحصر المعرفة بالله تعالى وما يتعلق به وهو المراد بالتوحيد فإنَّ أول الذين معرفته، فإنَّ العبد لا يمكنه أنْ يعبد مولاه حق عبادته و هو لا يعرفه وجاهلٌ به، وفي الثانية أنْ يتعرف العبد على عظمة صنع الله في خلقه وما ركَّب فيه من الآلات والجوارح المختلفة المتناسقة التي تدل على عظمة الخالق وبديع صنعه، وما لذلك من التفكر في الله تعالى وأثره في العبودية والعلم، وفي الثالثة التعرف على الواجبات والمحرمات التي أمر الله تعالى عباده أي معرفة الأحكام الشرعية من حيث الحلال والحرام والتفقه في الدين لتأدية الطاعة كما أرادها الله تعالى من عباده، وفي الرابعة معرفة ما يخرج الإنسان من دينه سواء كان من حيث إنكاره أصلاً من أصول الشريعة المقدسة أو إدخاله فيها ما ليس منها أو غير ذلك من الإيمان ببعض البدع والأهواء التي لها دور على سلامة العقيدة.

فهذا هو العلم الحقيقي الذي يجب علينا أنْ نتبعه لنصل إلى حقائق الخلق والإيجاد كما يريده الإمام υ لتلامذته وللمسلمين. لذا نرى الأحاديث الكثيرة التي وردت عنه في أمر التفقه في الدين لأنَّ به نجاة المرء من الضلال، فقد روي عنه υ : ((تفقهوا في دين الله، فإنَّ الفقهَ مفتاحُ البصيرةِ، وتمامُ العبادةِ، والسببُ إلى المنازل الرفيعةِ والرتبِ الجليلة في الدين والدنيا، وفضلُ الفقيهِ على العابدِ كفضلِ الشمسِ على الكواكب، ومَنْ لم يتفقه في دينه لم يرضَ الله له عملاً ..)). (٤٣)

فهذه التربية كانت لها أبلغ الأثر في وجود ذلك العدد الكبير من الرواة العلماء الذين خلَّد التأريخ ذِكْرَهم، وقد نجحت هذه المحاولات الكبيرة للأئمة في تهذيب وتربية الأمة وتشجيع أصحابهم على العلم والتعليم لأجل المشاركة معهم في هذا المشروع الإصلاحي التربوي للأمة وهذا ما سنلاحظه عند التعرض لبعض كلمات الإمام الكاظم υ وكذا مواقفه معهم والتي تؤكد على هذا الهدف والمضمون.

المستوى الثاني

لقد أنتجت هذه التربية الخاصة من الإمام موسى بن جعفر υ لأمته نماذج عظيمة من التلامذة والرواة الذين أصبحوا من كبار علماء هذه الأمة، فأوصلوا للمسلمين تراث الإسلام الحقيقي، ونحاول في هذه الصفحات أنْ نذكر بعضاً منهم وما يتعلق بترجمتهم لنكون على بينةٍ من آثار هذه التربية في المجتمع، والتي هي في الواقع امتداد لتراث النبي الأعظم ، حيث

استطاعوا بسنوات عدةٍ أنْ يقدِّموا جيلاً من تلامذتهم ينتشرون في الآفاق يعرِّفون الناس أحكام دينهم فقهه وعقائده ومناهجه.

ومن هؤلاء التلامذة الأجلاء الذين كان للإمام الكاظم υ دور في تربيتهم ونشأتهم نختار:

١- حماد بن عيسى الكوفي البصري.

٢- عبد الله بن جندب البجلي.

٣- علي بن يقطين.

فهؤلاء من أجل تلامذة الأئمة وعلماء الأمة الذين ينبغي علينا الوقوف على سيرتهم وآثارهم لنرى تأثير الإمام υ في تكوين شخصيتهم العلمية والاجتماعية ..

فهذه الطبقة من الرواة قد اتبعوا الأئمة اتباعاً صادقاً لم يتقدموهم ولم يتأخروا عنهم ولم يقصِّروا فيهم، فكان ثمار تلك الطاعة هذا الذكر الخالد مع إمامهم υ .

ونحاول بهذه العجالة وباختصارٍ أنْ نقفَ على قبس وشذرات من سيرتهم.

١- حماد بن عيسى الكوفي البصري

وهو من أصحاب الإجماع حيث أدرك أربعة من الأئمة توفي سنة (٢٠٩ هـ) وكان محتاطاً ومتحرزاً في نقل الحديث، وكان يقول حفظتُ أنا سبعين حديثاً -من الإمام الصادق υ - فلم أزل أُشَكِّكُ نفسي حتى اقتصرتُ على هذه العشرين حديثاً التي لم تدخلني فيها الشكوك. (٤٤)

وقال الشيخ: حماد بن عيسى الجهني غريق الجحفة، ثقة، له كتاب النوادر، وله كتاب الزكاة، وكتاب الصلاة، أخبرنا بها عدة من أصحابنا... (٤٥)

وهذا الموقف منه يدلُّ على شدة الورع والتقوى التي كان عليها حيث كان في صراع مع نفسه من أجل أنْ يصل بها إلى اليقين والقناعة التامة بصدق ما يرويه عن المعصوم υ لعلمه ما للأثر الكبير الذي يترتب على نقله للأحاديث لو كانت مشكوكة الصدور عنهم ، لا ما حدث من بعض الرواة الذين كانوا بقرب الأئمة ولكن هذا القرب والصحبة لم يؤثِّر فيهم فَدَسُّوا الكذب في أحاديثهم فكان عاقبة أمرهم أنْ لُعِنوا من قِبَل الأئمة، فهذه هي آثار التربية الصالحة للأئمة من حيث حَثِّ تلامذتهم على أنْ يكونوا قدوةً صالحةً في المجتمع لغيرهم من الناس من خلال جميع تصرفاتهم التي تعكس أخلاق الأئمة، ولقد كان الإمام υ من جانبه على علاقةٍ وثيقةٍ بهم لعلمه بتقواهم وورعهم وإخلاصهم، لذا نرى أنه قد دعا لحماد بعد أنْ طلبَ منه أنْ يدعو اللهَ كي يرزقه داراً وزوجة وأولاداً وخدماً وحجاً في كل سنة، فدعا الإمام υ فقال: ((**اللهُمَّ صَلِّ على محمدٍ**

وآلِ محمدٍ وارزقْهُ داراً وزوجةً وولداً وخادماً والحَجَّ خمسينَ سنة)) فحج خمسين سنة ثم خرج بعد الخمسين حاجاً فلما صار في موضع الإحرام دخل وادي القناة ليغتسل فأخذه السيل فمات غرقاً.

فهذه نبذة من سيرته تدل على مدى اهتمام الإمام υ بأصحابه وخصوصاً الرواة والعلماء منهم لأهمية دورهم في المجتمع.

وحماد كما هو معروف لدى علماء الرجال من أصحاب الإجماع الثمانية عشر الذين أجمعت العصابة على تصديق رواياتهم كما روى الكشي في ذلك.

٢- عبد الله بن جندب البجلي

وهو عبد الله جندب البجلي ثقة جليل القدر عابد من أصحاب الإمامين الكاظم والرضا ، قال الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة في فصل "ذكر طرف في أخبار السفراء في قسم المحمودين" : ومنهم عبد الله ابن جندب البجلي وكان وكيلاً لأبي إبراهيم وأبي الحسن الرضا وكان عابداً رفيع المنزلة لديهما على ما روي في الأخبار. وروي أنَّ عبد الله بن جندب قال لأبي عبد الله υ : ألستَ عني راضياً؟ قال: إي والله ورسول الله والله عنك راض[٤٦].

وروي عن يونس بن عبد الرحمان، قال: رأيتُ عبد الله بن جندب وقد أفاض من عرفات وكان عبد الله أحد المجتهدين، قال يونس: فقلتُ له قد رأى اللهُ اجتهادك منذ اليوم، فقال لي عبد الله: والله الذي لا إله إلا هو، لقد وقفتُ موقفي هذا وأفضتُ ما سمعني الله دعوتُ لنفسي بحرفٍ واحدٍ لأني سمعت أبا الحسن υ يقول: الداعي لأخيه المؤمن بظهر الغيب، ينادى من أعنان السماء لك بكل واحدة مائة ألف، فكرهتُ أنْ أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدري أجاب إليها أم لا.

وعن الحسن بن علي بن يقطين -وكان سيئ الرأي في يونس رحمه الله- قال: قيل لأبي الحسن υ وأنا أسمع: إنَّ يونس مولى آل يقطين يزعم أنَّ مولاكم والمتمسك بطاعتكم عبد الله بن جندب يعبد الله على سبعين حرفاً! ويقول: إنه شاك! قال: فسمعته يقول: هو واللهِ أولى بأنْ يعبد الله على حرف، ماله ولعبد الله بن جندب، إنَّ عبد الله بن جندب لمن المخبتين. [٤٧]

فهذا المدح والثناء من الإمام υ عليه أمام الآخرين يدل على مدى اهتمامه بأصحابه وتلامذته وتربيته لهم التربية الخاصة التي يبتغي من خلالها بثَّهم في المجتمع فتكون تلك التربية هي الأساس في الدعوة الصالحة وهذا من أهم ما كان يؤكد عليه الأئمة .

وكان أيضاً ذا منزلة رفيعة عند الإمام الصادق υ حيث وردت عنه وصية الإمام الصادق υ إليه والتي اشتملت على معانٍ كبيرةٍ وعظيمةٍ تدل بمضمونها على قدره وجلالته ومنزلته حيث يمكن ملاحظة ذلك من خلال استعراض فقرات تلك الوصية والتي جاء في فقراتها: يا ابن جندب:

حقٌّ على كُلِّ مسلمٍ يعرفنا أنْ يعرضَ عملَهُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ على نفسِهِ فيكون محاسباً نفسَهُ، فإنْ رأى حسنةً استزادَ منها، وإنْ رأى سيئةً استغفرَ منها لئلا يُخزى يومَ القيامةِ ... (٤٨)

٣- علي بن يقطين

وهو كوفي الأصل بغدادي المسكن، وكان ثقة جليلاً من أجلاء الأصحاب وجيها عند الإمام موسى بن جعفر υ وقد ضمن له الإمام الجنة وأنْ لا تمسه النار، ولقد كان للإمام معه مواقف متعددة تدل على مدى اهتمامه ومنزلته الرفيعة لديه، فكان الإمام يرعاه عن كثبٍ من قريبٍ أو بعيدٍ ويرشده وينصحه ويوصي به ويوصيه ليحافظ على نفسه وخصوصاً وأنه مقرَّبٌ لدى هارون الرشيد، حيث أراد الإمام υ أنْ يجعل من ذلك درساً مهماً للأجيال ولمَنْ تعهَّدَ بتربيتهم بأنه يمكن للمرء الوصول إلى طاعة الله وإنْ كان حاكماً لأنَّ المقياس هو حسن التصرف مع نعم الله تعالى، بل إنَّ إصلاح هذه الفئة في المجتمع يكون أكثر وقعاً من غيرهم في موارد، ولذا كان الإمام يهتم بعلي بن يقطين لأنه من أهل الصدق والصلاح ويمكن أنْ يُجرى الخير على يديه، وهذه بدورها رسالة إلى كُلِّ مسؤولٍ وراعٍ يبتغي رضا الله تعالى، ومواقف الإمام υ مع ابن يقطين عديدة يمكننا أنْ نسلط الضوء على بعضٍ منها لتكون لنا عبرة ودرساً تربوياً نافعاً، منها:-

* شكا علي بن يقطين حاله للإمام υ فقال له: أما ترى حالي وما أنا فيه ؟

فقال υ : يا علي إنَّ لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا علي. (٤٩)

* وفي رواية أخرى استأذن علي بن يقطين الإمام الكاظم υ في ترك عمل السلطان، فلم يأذن له، وقال: لا تفعل فإنَّ لنا بِكَ أُنْساً، ولإخوانك بِكَ عزاً، وعسى أنْ يجبرَ اللهُ بِكَ كسراً، ويكسر بِكَ نائرةَ المخالفين عن أوليائه، يا علي كفارةُ أعمالِكم الإحسانُ إلى إخوانِكم، اضمن لي واحدة واضمن لك ثلاثاً: اضمن لي أنْ لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيتَ حاجته وأكرمتَه وأضمن لك أنْ لا يظلَّك سقفُ سجنٍ أبداً، ولا ينالك حَدُّ سيفٍ أبداً، ولا يدخل الفقرَ بيتك أبداً، يا علي مَنْ سَرَّ مؤمناً فباللهِ بدأ وبالنبي ثنّى وبنا ثلَّث. (٥٠)

* وفي رواية عن عبد الرحمان بن الحجاج قال: قلتُ لأبي الحسن υ : إنَّ علي بن يقطين أرسلني إليك برسالة أسألك الدعاء له، فقال: في أمر الآخر؟ فقلت: نعم. قال: فوضع يده على صدره فقال: ضمنت لعلي بن يقطين الجنة وألا تمسه النار أبداً. (٥١)

* وعن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال: كنتُ عند أبي إبراهيم υ إذ أقبل علي بن يقطين، فالتفت أبو الحسن υ إلى أصحابه فقال: مَنْ سره أنْ يرى رجلاً من أصحاب رسول الله فلينظر إلى هذا

المقبل، فقال له رجل من القوم: هو إذن من أهل الجنة، فقال أبو الحسن υ : أما أنا فأشهد أنه من أهل الجنة. (٥٣)

والروايات التي تثني عليه كثيرة، حيث يعقب السيد الخوئي I عند ترجمته فيقول: إنَّ كثرة الروايات المادحة والدالة على جلالة علي بن يقطين أغنتنا عن التعرض لأسانيدها على أنَّ بعضها صحيحة وفيها الكفاية.

إنَّ هذه الرواية تعد من أهم الروايات التي وردت في سيرة أصحاب الإمام الكاظم υ وفيها من الدروس التربية النافعة وكذا الخطوات الإصلاحية التي كان يصبو من خلالها υ في تعامله مع تلميذه علي بن يقطين، فمن تلك الجوانب التربوية التي نلمسها هو زرع الثقة بالنفس لدى أصحابه وبالتالي الأمة كلها بأنهم على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم في حمل رسالة الأئمة وبثها في المجتمع مهما كان عملهم ومنصبهم الاجتماعي وأنهم من الطبقة التي لها دور كبير في المجتمع. حيث إنَّ الإمام موسى بن جعفر υ أراد بهذا الوصية أنْ يُسَجِّل دستوراً لكُلِّ مَنْ يُبَوَّء منصباً رفيعاً في مناصب الدولة فيجب عليه أنْ يعلم إنَّ هذا المجلس أو المنصب إما أنْ يكون له نعمةٌ كبيرةٌ يتولى قضاء ((حوائج المؤمنين)) ورفع الظلم والفاقة عنهم، أو يكون عليه نقمةٌ ووبالٌ حيث الناس وأذاهم، لذا نرى أنَّ هذا الوزير (علي بن يقطين) كان ملتفت إلى ذلك أشد الالتفات حيث كان يبتغي من وزارته الوصول إلى رضا الله وطاعته، فيألتي ويبعث كُلَّ حينٍ إلى الإمام υ ليبين له مسؤوليته في ذلك، فكان طائعاً لمولاه في وصيته تلك، فعلينا أنْ نأخذَ عبرةً نافعةً من هذه الدروس التربوية الإسلامية فنتخذ من المسؤولية سلماً للوصول إلى الطاعة، والبحث عن الرعية، وقضاء شؤونهم التي هم بحاجة إليها دون الاهتمام بالمنصب فقط وترك المؤمنين يصارعون الألم والحرمان.

وفي هذه الأحاديث التي وردت في علي بن يقطين دروسٌ يجب أنْ نشير إليها وهي الثقة بالنفس والاطمئنان بها، فيجب على المربي أنْ يزرعها في قلوب أبنائه مع المحافظة عليهم من الغرور والعجب، لذا نرى أنَّ الإمام υ يُعَبِّر عن علي بن يقطين بأنه وليٌّ من أولياء الله، وإنَّ هذا الصنف من الناس يكون دورهم أكبر في تحمل المسؤولية فيقول υ له: ((يا علي إنَّ لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا علي)). حيث أكد عليه في هذا الدرس التربوي على أمور عدة منها:

* إنَّك وليٌّ من أولياء الله تعالى وهذه منزلةٌ رفيعةٌ لا يصل إليها الإنسان إلا بعد الجهد والاجتهاد الصبر وإنَّ أولياء الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

* أراد أنْ يبين له إنَّ للسلطان أولياء ظلمة هم أعوان للحاكم الظالم، ولا يمكن للمرء أنْ يحصل على قضاء حاجته من ذلك السلطان وحوله أولئك الظلمة الذين يفكِّرون في لذاتهم وشهواتهم ولا يهمهم أمر الرعية من العباد وينبغي للمؤمنين أنْ يكونوا لهؤلاء بالمرصاد.

* إننا نأمل بك يا ابن يقطين أنْ تكون عيناً ويداً للمظلومين والمضطهدين بقضاء حوائجهم وتذليل الصحاب لدى الحاكم الظالم، وكل ذلك لأنك من أهل الخير والصلاح والورع والتقوى وهذه الخصال هي السبيل الذي يعينك على هذه المسؤولية أمام الله تعالى.

* إنَّ الإمام بعد أنْ بَشَّرَه بأنه من أولياء الله تعالى، عاد ليبشره بأنه ستقضى على يديه قضاء حوائج المؤمنين وفي ذلك العمل إدخال السرور على شيعتنا وهو من أعظم الإعمال.

ومن خلال هذا الحديث نلمس أيضاً الجوانب الإصلاحية التي أرادها الإمام υ من ذلك حيث أراد التأكيد على أنَّ مَنْ يبغي الوصول إلى السلطة عليه أنْ يكون أولاً مراقباً لنفسه في هذا العمل الحساس، مخالفاً لنفسه الإمارة بالسوء، بل يصل إلى درجة الأولياء الذين لا خوف منهم في جورٍ أو ظلمٍ، ويجب عليهم أنْ لا يَرَوْا لأنفسهم منزلة عظيمة، بل يكون السلطان عليهم نعمة من نعم الله تعالى عليهم ويجب أنْ يَؤدُّوا شكر هذه النعمة، وأعظم شكرها العدل والرحمة في الحكم بين الرعية، فإنَّ ذلك أساس الحكم وبه لا يُظلم عبدٌ وإنْ كان عبداً حبشياً، لا ما رأيناه من أنواع الظلم والاضطهاد والجور الذي وقع على المؤمنين لا لشيء سوى أنهم من أتباع أهل البيت ، فقضاء حوائج المؤمنين وإدخال السرور عليهم يجب أنْ يكون الهدف الأول والأساس للراعي تجاه رعيته، وفي هذا درس عظيم بالغ الأثر في التربية الخاصة والعامة. (٥٣)

فهذه من أهم دروس الإصلاح والتربية للراعي والحاكم لا ما هو المُتَّبَع من الأنانية وعبودية الذات.

فقد استطاع الإمام υ أنْ يخترق سلطان العباسيين الظاهر من خلال هذا الوزير وغيره بتربيتهم التربية الإسلامية التي تظهر حقيقة السلطة له أتيح لها المجال، فهذه هي إحدى محاولات الإمام υ في إيصال المؤمنين إلى السلطة، ليُعَلِّموا الناس كيف تكون قوانين الحقوق والواجبات التي فرضها الله تعالى، وفي ذلك أيضاً رسالة للآخرين بأنَّ الأئمة لم يتركوا الحُكّام يفعلوا ما يشاؤون بل لو وجدوا فرصة في ذلك لتدخَّلوا وفعلوا ما فعلوا.

ويجب علينا أنْ نذكر إنَّ هذه التربية الخاصة التي قام بها الإمام υ وآباؤه من قبل قد أسست وأثمرت إلى تَخَرُّجِ عددٍ من العلماء الرواة لأحاديثهم فأسست لهم القاعدة لتأليف مؤلفات خاصة في ذلك، ليتسنى لهم نشرها بين الناس وتعليمهم، وهذا كله يؤكد على اهتمام الأئمة بتربية الأمة على العلم والتعليم والبحث والتأليف.

وإنَّ من أهم الأسباب التي كانت وراء بروز هؤلاء العلماء وتآليفهم هو نشر علوم الإسلام الحقيقي بين المسلمين ليكونوا على بينةٍ من الشريعة المقدسة التي جاهد من أجلها النبي ، وهناك دوافع أخرى كانت وراء هذه الحركة العلمية لتلامذة الأئمة يمكن أنْ نذكرها إجمالا كما أشار إليها الشيخ عبد الهادي الفضلي حيث يقول: ((وكانت دوافعهم إلى التأليف تتلخص بالتالي:

١- الدافع الشرعي وهو إيمانهم بوجوب التفقه بالدين ونشر العلوم الشرعية بين الناس ومن أهم وسائل ذلك الكتابة.

٢- الدافع الحضاري وهو اعتقادهم بلزوم نقل هذه الحضارة العظيمة إلى الأجيال المقبلة لمشاركتهم لهم فيها.

٣- الدافع الاجتماعي وهو الثبات في وسطِ معتركِ الصراع الفكري المتمثل بصراع الحضارات الوافدة على الحضارة الإسلامية إضافة للخلاف في المناهج لدى المذاهب الإسلامية الأخرى)). [٥٤] فهذه من أهم الأسباب التي كان لها دور في تنشيط وتسريع الحركة العلمية.

ولعل من أبرز المؤلفات التي ظهرت في عهد الإمام موسى بن جعفر υ هي مؤلفات ثلاثة إضافة لما ألَّفه تلامذته من المؤلفات المختلفة، وهذه الثلاث:

١- مسند الإمام موسى بن جعفر

وقد ألَّفَ هذا المسند موسى بن إبراهيم المروزي [٥٥] وكان بعنوان (روايات يرويها عن الإمام موسى بن جعفر) كما ذكر ذلك الشيخ الطوسي في فهرسته، ويشمل هذا المسند على (٥٩) حديثاً رواها الإمام موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه علي أمير المؤمنين عن أخيه محمد رسول الله . [٥٦]

٢- الجعفريات

وقد سُمِّي بذلك لاتصال سند روايته بالإمام جعفر بن محمد الصادق υ ويُعرف أيضاً بـ (الأشعثيات) نسبة إلى راويه محمد بن الأشعث الكوفي [٥٧] عن موسى بن إسماعيل عن أبيه إسماعيل بن موسى عن أبيه موسى ابن جعفر υ وقد تضمن أبواباً في الفقه والتفسير والطب وغيرها.

٣- مسائل علي بن جعفر

وقد رواها السيد علي بن الإمام جعفر الصادق υ المعروف في كتب الحديث والرجال بـ(علي بن جعفر)[٥٨] عن أخيه الإمام موسى بن جعفر υ .

من خلال ما تقدم وغيره من المؤلفات الكثيرة التي ألَّفها رواة الأئمة يظهر لنا أثر تلك التربية لهم والتي كان قائمة أساساً على التدريس والتعليم لهم والتربية العلمية، إضافة إلى تشجيعهم

على الكتابة في مؤلفات خاصة، ولذا ترى ازدياد النشاط العلمي وشموله لجميع حقول المعرفة في هذا العهد (عهد الإمام الكاظم υ) من خلال زيادة المؤلفات وكذا ازدياد الرواة لهذه المدرسة الفقهية العقائدية.

وأخيراً لقد تحمل جميع الأئمة ومنهم الإمام موسى بن جعفر υ الكثير من المصاعب والعناء الشديدين من أجل القيام بدورهم الرسالي في المجتمع الإسلامي والحفاظ عليه من الانحراف والضياع وإنْ كان في ذلك القتل والتشريد والسجون المظلمة .. لقد قام الإمام موسى بن جعفر υ بهذا الدور العظيم في المجتمع منذ صغره إلى حين شهادته وهو يجاهد ذلك الجهاد الأعظم في سبيل إصلاح هذا المجتمع وتربيته التربية الإسلامية الصالحة.

الخاتمة

- من خلال ما تقدم أصبح واضحاً لدى الباحثين في سيرة أهل البيت أنَّ الأئمة قد جاهدوا أعظم الجهاد في سبيل إيصال الرسالة الإسلامية الحقيقية إلى كل المسلمين وغير المسلمين ليتعرَّف الجميع بذلك على عظمة الشريعة الإسلامية وشمولها لكل جوانب الحياة.
- تم بيان الجوانب الإصلاحية التي مارسها الإمام الكاظم υ والتي تمثلت بالجانب العقائدي والفقهي والاجتماعي وأثر ذلك في إصلاح سيرة المسلمين في التعامل مع كُلِّ شيء.
- حاولنا أنْ نسلط الضوء على مميزات المناهج التربوية عند أهل البيت بما هو سواها من المناهج وشمولية تلك المناهج وربّانيتها.
- تم بيان نماذج لتلك التربية التي نشرها الإمام الكاظم υ بين تلامذته من خلال الأحاديث التي حثت على طلب العلم ونوعية ذلك العلم النافع وأثر ذلك.
- تم بيان نماذج مشرقة من سيرة الرواة العلماء الذين أثَّرت فيهم تلك المناهج التربوية للإمام الكاظم υ وبيان بعض المؤلفات القيمة التي صدرت عنهم.
- أرى أنه ينبغي دراسة هذه المناهج التربوية دراسة أكاديمية ليطلع الطلبة على هذا التراث العظيم للإمام الكاظم υ وغيره من الأئمة وبيان أثر ذلك على إصلاح المجتمع وتربيته التربية الصالحة.
- وينبغي علينا إقامة المؤتمرات العلمية لدراسة مواقف الأئمة والعلماء والمصلحين الذين كان لهم أثر في الحركة العلمية والإصلاح في المجتمع لننهل من تلك المواقف الدروس الكبيرة لفائدة الأمة.

الهوامش:

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧
(٢) سورة الجمعة: الآية ٢
(٣) ينظر التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، يوسف مدن، ص٣٣

(٤) المراجعات، عبد الحسين شرف الدين العاملى، ص٢٦
(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٦
(٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص٢٩٥
(٧) الملل والنحل، الشهرستاني. ص٢٥
(٨) الحسكة: العداوة والحقد. والسمل: صار خَلِقاً.ويمكن مراجعة الخطبة كاملة فنرى ما فيها من المواقف التي تدل على حركة الإصلاح التي قامت بها.
(٩) الاحتجاج ج٢، الطبرسي. ص١٦٣-١٦٥
(١٠) سورة هود: الآية ١١٣
(١١) ومن تلك الموارد ما أجازه الإمام الكاظم υ لعلي بن يقطين بالعمل مع هارون وزيراً ولكن ضمن شروط بَيَّنها له، وسوف نتحدث عن ذلك عند الكلام عن دوره υ في التربية.
(١٢) صفوان الجمال: قال النجاشي صفوان بن مهران بن المغيرة الأسدي، مولاهم ثم مولى بني كاهل، كوفي، ثقة، يكنى أبا محمد، كان يسكن بني حرام بالكوفة، روى عن أبي عبد الله υ ، وكان صفوان جمالاً، وعد الشيخ المفيد في إرشاده في فصل في النص على إمامة الكاظم من أبي عبد الله صفوان الجمال من شيوخ أصحاب أبي عبد الله υ وخاصته، وبطانته، وثقاته الفقهاء الصالحين. وفي رجال القهبائي عن رجال الشيخ عده من رجال الكاظم υ أيضاً. (معجم رجال الحديث ج ١٠ ص ١٣٢)
(١٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٧ ص١٨٢
(١٤) عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر. ص٢١٣
(١٥) محمد بن الحسن الشيباني: محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان، ‘مام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، أصله من قرية حرستة في غوطة الشام، وولد بواسط، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة، وغلب عليه مذهبه وعُرف به، وانتقل إلى بغداد فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه، فمات في الري. (الأعلام ج٦ ص ٨٠)
(١٦) الاحتجاج. ج٢ ص١٦٨
(١٧) أبو يوسف القاضي: يعقوب بن إبراهيم، ولد سنة (١١٣هـ) وكان من أصحاب الحديث ثم غلب عليه الرأي، أخذ الفقه عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ثم عن أبي حنيفة، وولي القضاء للرشيد.
(١٨) الاحتجاج. ج٢ ص ١٦٨-١٦٩
(١٩) يراجع النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي.
(٢٠) ينظر: الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، نور الأبصار للشبلنجي، تحف العقول وغيرها من المصادر.
(٢١) المنهج التربوي عند أهل البيت ، السيد سعيد كاظم العذاري. ص٢٥٣
(٢٢) تحف العقول، الحسن بن شعبة الحراني. ص٣٠١
(٢٣) رسالة الحقوق للإمام زين العابدين υ .
(٢٤) ميزان الحكمة. ج٦ ص١٧٩٦
(٢٥) سورة الرعد: الآية ٢٨
(٢٦) سورة الملك: الآية ١٥
(٢٧) ميزان الحكمة ج٣ ص ١٠٧٥
(٢٨) المصدر نفسه ج٣ ص١٠٧٤
(٢٩) المصدر نفسه.
(٣٠) المصدر نفسه ج٣ ص١٠٧٥
(٣١) المصدر نفسه.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) سورة الحجرات: الآية ١٠
(٣٤) سورة التوبة: الآية ٧١

(٣٥) الوسائل ج٢٩ ص١٣ باب ٣ حديث ١ كيفية المعاشرة مع أصناف الإخوان . وهذا الحديث وغيره يؤكد ما بيناه من أنَّ أهل البيت كان لهم دور كبير في تربية الأمة التربية الإسلامية الحقيقية من خلال هذه الأحاديث التي كانوا يحدِّثون الناس وأصحابهم وتلامذتهم بها.

(٣٦) دراسات في علم النفس الإسلامي، الدكتور محمود البستاني. ج١ ص٢٠٢

(٣٧) ميزان الحكمة. ج١ ص٤٦

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) حياة الإمام موسى بن جعفر، باقر شريف القرشي. ج١ ص٢٣٩

(٤٢) ميزان الحكمة. ومن أراد التفصيل في ذلك فيراجع وصيته υ لتلميذه هشام بن الحكم فإنَّ تحوي على عيون الحكمة والمعرفة.

(٤٣) المصدر نفسه ص٣١٠

(٤٤) منتهى الآمال، عن اختيار معرفة الرجال. ج٢ ص٣٨٣

(٤٥) معجم رجال الحديث. ج٧ ص٢٣٦

(٤٦) المصدر نفسه. ج١١ ص١٥٩

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) تحف العقول. ص٢١٨

(٤٩) منتهى الآمال. ج٢ ص٣٨٨، وهذا القول يدلل على شدة الظلم والجور الذي كان يراه ابن يقطين من الحكام للرعية ولا يستطيع بدوره أنْ يرد الأذى عن المؤمنين.

(٥٠) المصدر نفسه. ج٢ ص٣٨٩

(٥١) معجم رجال الحديث. ج١٣ ص٢٤٤

(٥٢) المصدر نفسه. ج١٣ ص٢٤٥

(٥٣) أتمنى أنْ يقرأ الإخوة الحُكّام والوزراء والمسؤولون هذه الكلمات العظيمة العطرة الصادرة من حجة الله تعالى في أرضه ليكونوا عند حسن ظن إمامهم في قضاء حوائج المؤمنين وتذليل الصعاب عليهم من الظروف الاجتماعية القاهرة، فيكونوا أولياء لله تعالى كما أراد الإمام موسى بن جعفر υ لعلي ابن يقطين وزير هارون. فهذه هي مبادئ أهل البيت لا أمل ولا حاجة لهم سوى قضاء حوائج المؤمنين المظلومين.

(٥٤) تأريخ التشريع الإسلامي، الدكتور عبد الهادي الفضلي. ص١٧١

(٥٥) موسى بن إبراهيم المروزي. قال النجاشي: موسى بن إبراهيم المروزي، أبو حمران ، روى عن موسى بن جعفر υ ، له كتاب، ذكر أنه سمعه وأبو الحسن محبوس عند السندي بن شاهك، وهو معلم ولد السندي بن شاهك. وقال الشيخ : موسى بن إبراهيم المروزي، له روايات يرويها عن الإمام موسى بن جعفر .

(٥٦) تأريخ التشريع الإسلامي. وقد أشار إلى هذا المسند العلامة الشيخ "محمد حسن آل ياسين" في مجلة البلاغ السنة (٦) العدد (٧) ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م تحت عنوان (من نفائس مخطوطات الظاهرية بدمشق مسند الإمام موسى بن جعفر υ) حيث يقول: ((وكان من جملة ما وقفتُ عليه بين تلك المجموعات العلمية رسالة حوت (٥٩) حديثاً يقول جامعها موسى بن إبراهيم المروزي –أحد حفاظ الحديث الشريف– إنه قد سمعها من الإمام موسى بن جعفر υ مشافهة، فجمعها معتزاً بها في كتابٍ، تناقله عنه المعنيون بالحديث على مَرِّ العصور رواية وسماعاً ونسخاً وضبطاً. (انتهى)، وقد نشر هذا المسند المحقق السيد "محمد حسين الحسيني الجلالي" سنة ١٣٨٩هـ في طبعته الأولى حيث عنى بدراسته أسانيد الكتب عن طريق محدثي الشيعة والعامة.

(٥٧) محمد بن الأشعث الكوفي. قال النجاشي: محمد بن محمد بن الأشعث، أبوعلي الكوفي، ثقة، من أصحابنا، سكن مصر، له كتاب الحج، ذكر فيه ما روته العامة عن جعفر بن محمد υ في الحج..، وقال الشيخ في رجاله في باب مَنْ لم يرو عنهم : محمد بن محمد بن الأشعث الكوفي، يكنى أبا علي، ومسكنه مصر في سقيفة جواد، روى نسخة عن موسى ابن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه إسماعيل بن موسى ابن جعفر، عن أبيه موسى بن جعفر υ . قال العكبري: أخذ لي والدي (أخذ لي ولوالدي) منه إجازة في سنة (٣١٣). (معجم رجال الحديث ج ١٨ ص ٢٠٠)

(٥٨) علي بن جعفر. قال فيه الشيخ الطوسي في الفهرست: جليل القدر، ثقة، له كتاب المناسك، ومسائل لأخيه موسى الكاظم بن جعفر υ سأله عنها. وقد طبع حديثاً بتحقيق وجمع مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

المصادر

القرآن الكريم.

- آل ياسين، محمد حسن، الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).
- البستاني، محمود، دراسات في علم النفس الإسلامي، دار البلاغة، بيروت، ط٤، ١٤٣١هـ٢٠١٠م.
- البلاغ، مجلة، السنة (٦) العدد (٧)، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.
- الحراني، الحسن بن شعبة، تحف العقول، مؤسسة الأعلمي، بيروت، قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي،ط٧، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث، ط٥، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٨هـ٢٠٠٨م.
- الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، تح دار الحديث، مط دار الحديث، الناشر دار الحديث، ط٢، قم، ١٤١٦هـ.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، مط دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.
- سند، محمد، النظام السياسي عند الإمامية، قم.
- الشهرستاني، عبد الكريم، الملل والنحل، تقديم وإعداد الدكتور عبد اللطيف محمد العبد، مط الأنجلو المصرية، مصر، ط١، ١٩٧٧م.
- الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان، مط النعمان، النجف، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.
- المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية، تحقيق عبد الكريم الكرماني، منشورات لسان الصدق، قم، ط١، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.
- العاملي، عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.
- العاملي، محمد بن الحسن الحر، وسائل الشيعة، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط٢، بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

- الفضلي، عبد الهادي، تأريخ التشريع الإسلامي، دار الكتاب الإسلامي، مط سرور، قم، ط٢، ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.
- القرشي، باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، مط الآداب، النجف.
- القمي، عباس، منتهى الآمال في تأريخ النبي والآل، قم.
- لجنة التأليف، أعلام الهداية (فاطمة الزهراء "عليها السلام")،مط ليلى، الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)، ط٣، ١٤٢٧هـ.
- مدن، يوسف، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، مط دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ٢٠٠٦م.